الدربحانية
ميناء إسلامي في رأس الخيمة
(دولة الإمارات العربية المتحدة)

د. صباح جاسم الشكري
كلية الآداب – جامعة بغداد

نبذة عن أهمية وتاريخ الخليج العربي :

يبلغ طول الخليج العربي نحو ٦٠٠ ميل ويتراوح عرضه بين ٧٠ و ٢٣٠ ميلاً (الخارطة ١ ، لوح ١ ؛ الخارطة ٢) [١] ، وهو ينفذ إلى خليج عمان عن طريق مضيق هرمز [٢]، أطلقت على الخليج العربي أسماء متعددة عبر التاريخ ، فقد أسماه قدماء العراقيين " البحر الأسفل " ، يقابله " البحر الأعلى " ، وهو الاسم الذي أطلقوه على البحر الأبيض المتوسط ، ومن الأسماء التي عرف بها الخليج العربي هي تسميته في الوقت الحاظر التي أطلقها عليه المؤرخ سترابو (٦٤ ق.م – ١٩ م) في بعض الأحيان [٣] .

كما أسماه المؤرخ هيرودوتس (الخليج العربي) ، وسمي (أرض الله) و (أرض البحر) و (خليج البصرة) ، وقد أستخدم الرومان تسمية " البحر الأسفل " [٤] .

يحتل الخليج العربي موقعاً جغرافياً مهماً بصفته حلقة وصل بين الشرق والغرب ، وبفضل شواطئه الكبيرة وسهولة الرسو فيه شغل الخليج العربي مركزاً مهماً للملاحة البحرية ، حيث يشكل طريقاً مفتوحاً ويسيراً لنقل البضائع التجارية القادمة من بلدان شتى في الشرق والغرب أو المتجهة إليها ، ومن خلال نقل تلك البضائع حدث الكثير من الانتقال الحضاري بين بلدان من مناطق نائية وبين كل من بلاد الرافدين ومنطقة شرقي البحر الأبيض المتوسط من ناحية ، وبينها جميعاً وبين مرافئ الخليج العربي من ناحية أخرى .

ومن الناحية الحضارية لا شك أن الظروف البيئية والمناخية لمناطق الخليج العربي سمحت بقيام حضارة لها خصائص معينة ولكنها كانت متأثرة بالحضارات المجاورة مثل بلاد الرافدين التي يعود تأريخ صلتها بالخليج والجزيرة إلى عصر العبيد في الألف الخامس قبل الميلاد [٥]، حيث إنتشرت صناعاته الفخارية في المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية وفي قطر

الدربحانية " جلفار " : تحدثنا في بحث سابق عن نتائج أعمال التنقيب في موقع الدربحانية وعرضنا إيجازاً عن تأريخ هذه المدينة العربية - الإسلامية والدور القيادي لزعماء إمارة رأس الخيمة في الوقوف بوجه الأطماع الأجنبية بالخليج العربي منذ منتصف القرن الثامن عشر [١٥] . أما ما سيتطرق إليه هذا البحث فهو الهوية الحقيقية لهذا المستوطن الكبير ودوره في التجارة البحرية الدولية ، وذلك في ضوء المكتشفات الأثرية في الموقع .

يمتد مستوطن الدربحانية طولياً بمحاذاة الساحل الغربي للخليج العربي على مدى خمسة كيلومترات ، وبعرض يتراوح بين (٢٥٠ - ٥٠٠) متراً ، يتكون هذا المستوطن من ثلاثة أقسام أطلق عليها مجتمعاً إسم الدربحانية [١٦] وهي :

١ - الدربحانية :

تقع في الجهة الجنوبية الغربية للمستوطن وتحمل الأسم نفسه ، وهي تتصل بالطرف الشمالي لمدينة رأس الخيمة ، حيث يغطي جزء منها المباني السكنية الحديثة لحي " معيريض " ، تلول هذا الجزء من الموقع متباعدة ومتفرقة إذا أخذنا بالمعيار نمط الإتيطان (Settlement Pattern) .

٢ - الندود :

تعني باللهجة المحلية " التلول " ، وهي تشكل الجزء الأوسط للمستوطن ، لحقت بهذا الجزء من الموقع أضراراً وتجاوزات عدة بسبب الإعمار وإقامة المنشآت الخدمية الحديثة ، التلول الأثرية هنا متقاربة ويشكل البعض منها سلسلة من المرتفعات المتصلة .

3 - المطاف :

يشكل المطاف الجزء الشمالي الشرقي للمستوطن ، وهو أكبر أقسامه ويفصله عن المنطقتين المشار إليهما خور تغمره مياه البحر عند حدوث المد ، كما أن التلول هنا أكثر إرتفاعاً ، ويظهر البعض من بقايا المباني في الأجزاء المتآكلة من المطاف جراء التعرية والنحت المستمرين بواسطة مياه البحر ، ومن خلال بعض اللقى الأثرية الملتقطة من بقايا المباني الظاهرة يبدو واضحاً أن هذا الجزء من المستوطن هو الأغنى والأكثر أهمية [١٧] .

الحضاري .

ومما يجدر ذكره هنا ، أنه إلى جانب هاتين المحطتين الكبيرتين على شواطئ الخليج العربي (دلمون ومكان) تشير المكتشفات الأثرية في جزيرة فيلكا إلى كونها واحدة من المحطات التجارية الوسيطة للسفن المتجهة من بلاد الرافدين نحو دلمون (١١) .

ولابد أن هذه السفن قد إستخدمت شواطئ قطر وأبو ظبي ورأس الخيمة ، كمحطات تجارية ذات موقع مهم على الطريق بين دلمون وبين مكان .

وإلى جانب ما وصلتنا من كتابات سومرية ونصوص مسمارية أخرى ترجع لفترات تاريخية لاحقة زودتنا بها مواقع بلاد الرافدين ، فإن نتائج أعمال المسح الآثاري والتنقيبات التي جرت في مواقع أثرية متعددة في الجزيرة و أقطار الخليج العربي (١٢) ، تعد في الواقع السفر الحقيقي الذي نقرأ في صفحاته الدور الكبير الذي لعبته هذه المناطق في مجال التجارة الدولية ، وبشكل خاص التجارة البحرية.

ففي العصر الإسلامي ، وهو الإطار الزمني لموضوع بحثنا هذا ، كان الخليج العربي مركزاً عالمياً للملاحة في العصر الأموي . وعلى الرغم مما أحاق بالدولة العربية - الإسلامية من مخاطر جمة جراء ظهور الحركات الداخلية التي شغلت الأمة ، مثل حركات " الخوارج " و " الزنج " و " القرامطة " ، وتعرض البلاد للإحتلالات والتدخلات الأجنبية بعد ضعف الدولة العباسية وما عانته المدن الساحلية للخليج العربي بوجه خاص من سيطرة أوربية متلاحقة ، فقد ظلت هذه المدن ، ومنها رأس الخيمة ، مراكز نشيطة في ميدان التجارة البحرية ولها دور فعال في إستقطاب التجار من الشرق والغرب (١٣) .

ذكر المؤرخون والبلدانيون أن أول بحار عربي قام برحلة إلى الصين هو النضر بن ميمون البصري ، وذلك في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) . كما ذكروا أن ملاحاً عربياً عرف باسم عبهرة أبحر عدة مرات بين الخليج العربي والصين ، ومن بين ألمع الأسماء العربية في مجال الملاحة ، نذكر إسم شهاب الدين أحمد بن ماجد صاحب المؤلفات والمصورات البحرية في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجري (الخامس عشر والسادس عشر الميلادية) ، وهو ربان عربي من عمان ، أقام في مدينة " جلفار " ، التي يظن أنها موقع الدربحانية في رأس الخيمة موضوع بحثنا هذا (١٤) .

قياساً بسعته وكثرة المرتفعات الأثرية فيه ، إلا أن إمتداده الشريطي على ساحل البحرقد ساعد كثيراً في تحديد وظيفته كميناء ، وربما يمكن القول هنا ، أن هذا الميناء لابد أنه ضم بين سكانه الأصليين جالياتٍ وتجار مقيمين يديرون عمليات نقل البضائع بين بلدانهم وبين هذا الميناء ، ذلك إضافة للتجار المحليين الذين يمارسون أعمال التجارة مع الخارج وكذلك بين الميناء وبين مواضع الإستيطان ومحطات أو مضارب القبائل البدوية داخل البلاد بإستخدام الطرق البرية في نقل البضائع .

وفي لمحة عن تأريخ الإستيطان في الدربحانية ، فإن ما أظهرته المكتشفات الأثرية المتنوعة في إثنين من التلول الصغيرة بمنطقة الندود تشير بوضوح الى أنه يرجع الى العهد الإسلامي المتأخر ، الذي يقع ضمن الفترة بين (١٥٠٠ - ١٨٠٠ ميلادية) . إن أبرز المواد المكتشفة هنا ، هي النقود النحاسية والفضية بين هذه النقود مسكوكة نحاسية مؤرخة بسنة (٩١٢ أو ٩١٣ هجرية) [٢٠]. ومن خلال النماذج المختارة الصالحة للدرس لاحظنا أن الغالبية منها كانت مضروبة في مدينة " جَرَون " ، وهي جزيرة هرمز التي كانت عاصمة لمملكة عُمان العربية والتي بلغت أوج عظمتها في الفترة بين القرنين (الرابع عشر والسابع عشر للميلاد / القرن الثامن إلى الحادي عشر الهجرية) . تتزامن هذه المدة مع مدة حكم أسرة " منك / Ming " الكبيرة في الصين بين الأعوام (١٣٦٨ - ١٦٤٤ م)، ولا سيما عهد أسرة " وان لي / Wan Lee "(١٥٧٣ - ١٦١٩م) .

وبالإضافة لظهور البورسليين الصيني المنسوب للمدتين المذكورة بين مكتشفات الدربحانية ، فقد رافقتها مجموعة من قطع البورسلين المقلد في إيران خلال الفترة الصفوية (القرن السادس عشر إلى الثامن عشر الميلادية) ، ومن هذا قد نستطيع القول بأن النقد المؤرخ الذي أوردنا ذكره لا يمثل أقدم تأريخ للمستوطن ، هذا إذا وضعنا في نظر الإعتبار أن مدينة " جَرَون " تعود لتأريخ أقدم من المسكوكة المذكورة ، ولابد أن يكون ذلك شأن النقود الكثيرة المضروبة بهذه المدينة ، والتي تم الكشف عنها خلال عملنا في الدربحانية . فضلاً عما ذكر ، زودتنا تنقيبات المستوطن بمواد مختلفة محلية الصنع ، يبرز بينها الفخار الملون والمحزز والعادي [٢١] ، وهي جميعاً ذات وظائف حياتية يومية ، ويبدو من خلال معاشر المواد المذكورة فأن تأريخ المستوطن يتفق مع المدة الإسلامية المتأخرة [٢٢] .

وفي نظرة على المساحة التي شغلتها الدربحانية يمكن أن نتصور أننا أمام أكبر مستوطن عرفته سواحل الخليج العربي خلال الفترة الإسلامية على الإطلاق [١٨] ، إذ تبلغ مساحة المستوطن ما يزيد على (٢٠٠) هكتار ، ويعني هذا أن موقع الدربحانية كان بمستوى " مدينة " في حسابات تصنيف الإستيطان ، هذا عدا المساحات الكبيرة التي كان المستوطن يتغذى عليها من أراضي زراعية تدعمها في الخلف ، عند الجهة الشمالية الشرقية ، يقدر الأستاذ روبرت ماك آدمز ما يمكن أن يستوعبه الهكتار الواحد من السكان بعدد (١٠٠) شخص [١٩] ،هذا التخمين وضع ليتلائم ومواضع الإستيطان المعتمدة على الزراعة السيحية في السهل الرسوبي ببلاد الرافدين ، إلا أننا قد نجد له مبررا للتطبيق في مستوطن الدربحانية ، ذلك أن هذا المستوطن يملك مقومين أساسيين للوجود والبقاء وحتى الإتساع ، أولهما أنه يشكل ميناءً صالحاً لإستقبال السفن التجارية من الأقاليم المختلفة والتي ذكرناها آنفاً ، وثانيهما هو توفر الأراضي الزراعية الخصبة بالقرب منه ، ونعني بها " منطقة النخيل " ، فهي وإن لم تكن مؤهلة للإستثمار بمستوى أراضي السهل الرسوبي ببلاد الرافدين ، إلا أنها لاتزال تعد رافداً أساسياً لنظام العيش (Subsistant System) في الدربحانية ، بعبارة أخرى ، إن مجتمع مستوطن الدربحانية لم يكن إستهلاكياً يعتمد على صيد الأسماك والأحياء البحرية وما تجلبه السفن التجارية الوافدة أو المارة عبر سواحله من أغذية ومؤن ، وإنما وفرت له الأراضي الزراعية القريبة أسباب الإستيطان الثابت الذي يقوم بالدرجة الأساس على " إنتاج غذائي " دائم ، وربما فائض إنتاج معقول يخزن لمواسم الحاجة . في ضوء ذلك ، وإذا حاولنا أن نقدر عدد سكان هذه المدينة واضعين بنظر الإعتبار حجم الإستيطان الظاهر ، أي أطلال موقع الدربحانية والأراضي الزراعية القريبة منها وما يمكن أن تستوعبه هذه الأراضي من أعداد كبيرة من الفلاحين ، فإن عدد سكان المستوطن سوف لا يقل عن (٢٠٠٠٠) نسمة إن لم يزد ، حسب تقدير آدمز .

وإستكمالاً لموضوع السكان ، أو بالأحرى مجتمع المدينة في الدربحانية ، علينا أن نؤكد حقيقة أن البنية الأساس في التكوين السكاني هنا تقوم على العرب من أبناء القبائل المختلفة ، وهذا في الواقع شأن جميع مواضع الإستيطان ، ومنها المحطات التجارية التي أنشأها العرب على إمتداد سواحل الخليج العربي عبر تأريخه الطويل . من ناحية أخرى ، فإنه على الرغم من كون التنقيبات الآثارية في مستوطن الدربحانية محدودة جداً

هذا المستوطن لإمتلاك مقومات " المركز " ، ونعني به " المدينة " وهي تتلخص فيما يأتي :

١- الإدارة ، وهي ممثلة بـ " السلطة الساسية " :

في موقع الدربحانية كمدينة ساحلية تعتمد في إقتصادها بالدرجة الأساس على التجارة البحرية مع الخارج ، لابد من وجود إدارة قوية قادرة على الدفاع عن مصالح المدينة والثروات المالية فيها وحماية البضائع الواردة إلى شواطئها . لها الحق في إستلام الضرائب من السفن المارة عبر هذه الشواطئ لقاء تأمين سلامتها وتوفير الخدمات الضرورية لها ، بما في ذلك إصلاح السفن في ورشها ، أو ما يعرف بإسم " دار الصناعة " ، إضافة لتقديم التسهيلات لأصحابها طيلة فترة الإقامة هنا ، وفي مدينة تتمتع بهذه الخصوصية الوظيفية لابد أن تكون للإدارة علاقات سياسية وإتفاقات مع المناطق المجاورة ، وبينها وبين الأقطار المصدرة للبضائع التي تشكل المكتشفات الأثرية هنا بعضاً منها وذلك لتأمين سلامة مرور السفن عبر هذا الميناء ، وربما مياهه الإقليمية .

وفي محاولة لتحديد هوية " السلطة " في موقع الدراسة ، لا نجد أنها تتعدى حدود زعماء رأس الخيمة أو شيوخ قبائلها ، فهم المرشحون في الغالب لإشغال موقع القيادة هنا ، وهم القوة الأنسب في بيئة قبلية تستطيع أن توفر الحماية للتجار الوافدين ولسفنهم وبضائعهم ، وهم كذلك يملكون الكلمة الأكثر فاعلية لتأمين كل الإحتياجات والخدمات والمؤن ، بما في ذلك ورش إصلاح السفن المتوقفة بمرسى الميناء .

٢ - السوق :

في حالة مدينتنا هذه ، نستطيع القول أنها مجتمعاً تشكل سوقاً يستقبل السفن القادمة من أقطار مختلفة ، وهي في الوقت نفسه تعد سوقاً لتصريف البضائع الواردة إليها وتسويق الفائض منها إلى الأسواق الأخرى سواءً المحلية منها أو البعيدة ، أي أنها تعمل كوسيط لتصريف البضائع إلى أسواق الخليج العربي أو العراق وليس فقط ميناءً تعبر من خلاله السفن المحملة بالبضائع التجارية إلى مستقراتها ، لذلك يمكن أن نتصور سوقها الرئيس ، وأسواقها الأخرى وما تحفل به من بضائع متنوعة .

إن تنوع العملات المختلفة في مستوطن الدربحانية يرجعها بالطبع إلى

وفي مراجعة لبقايا مستوطن الدربحانية نلاحظ من خلال الأضرار الكبيرة التي لحقت بمنطقة المطاف جراء عمليات النحت بمياه البحر ، أنه يمكن القول بأن هذا المستوطن كان أوسع مساحة مما هو عليه في الوقت الحاضر [٢٣].

في الواقع ، أن هذه الظاهرة تستحق أن يقف عندها الباحثون الجيولوجيون إلى جانب زملائهم الآثاريين للتقصي العلمي في أمر تقدم البحر على حساب اليابسة (الساحل) خلال المدة بين القرن الثامن عشر – ، إذا أخذنا بما هو متوفر الآن من مكتشفات أثرية في الموقع ، وبين الوقت الحاضر .

أن تقدم البحر بإتجاه اليابسة بهذا الشكل ضمن هذه المدة القصيرة ربما ينبه المسؤولين في دولة الإمارات العربية المتحدة إلى ضرورة حماية سواحل المدينة من أضرار النحت المستمر .

ولا نغفل هنا ظاهرة المد والجزر ، إلا أننا نحاول أن نذكر بأن مستوطناً مهماً ، أو بالأحرى كما أشرنا سابقاً ، أن مدينة ساحلية واسعة كهذه لا يمكن أن تنشأ وتستمر ويتسع فيها العمران لمدة لا تقل عن ثلاثة قرون دون أن توضع حسابات دقيقة لظاهرة المد والجزر وإمكان تأثيرها على المستوطن آنذاك .

وفي مراجعة تحليلية لنموذج الأبنية المنقبة في منطقة الندود نجد أنها قد تمثل حارة سكنية ذات مبانٍ بسيطة ، ومن خلال موجوداتها ، ولاسيما إحتوائها على الكثير من قشور المحار ،يبدو أن سكانها ، أو على الأقل سكان هذا الجزء من منطقة الندود ، كانوا صيادوا لؤلؤ بالدرجة الأساس ، وهم قد يشكلون الأغلبية من رجال السفن العاملين في الصيد والأسفار البحرية التي إعتمد عليها إقتصاد المدينة ، ويبدو من خلال طبوغرافية منطقتي الندود والدربحانية ، أنهما تشكلان منطقة سكنية واحدة واسعة خصصت للعامة من سكان المدينة ، إما منطقة المطاف ،فلاشك أنها كانت المركز الإداري للمدينة ومكان تجمع الثروات ،ومنها بالطبع تدار العمليات التجارية بين المدينة وبين الخارج .

وفي ضوء مساحة مستوطن الدربحانية بأجزائه الثلاث وما ظهر خلال أعمال التنقيب فيها ، مثل النقود والكثير من كسر البورسلين ، سواءً المصنعة في الصين أو في إيران ، والجرار الفخارية ولقىً أثرية أخرى ، رغم أن نقاط الحفر كانت محدودة ، كل ذلك قد يسمح لنا أن نفترض أهلية

الشوارع العريضة هي ذات تخطيط حضري بشكل عام .

٥ - الصناعات المحلية :

يحق لنا هنا أن نتطرق إلى منتجات محلية متنوعة لابد أن تكون قد أخذت مكانها في الحياة العامة لسكان مستوطن الدربحانية ، فلابد أن يكون حضورها واضحاً في أسواق المستوطن ، وهي حتماً لا تختلف عما نشاهده اليوم من مصنوعات شعبية تراثية تضم متاحف الدولة نماذج منها .

ففي ضوء المكتشفات الأثرية هنا لابد من الإشارة إلى " الفخار والخزف " الذين تدخل صناعاتهما في صميم الحياة اليومية للسكان ، إلا أنها وكما نلاحظ من خلال الفخاريات الملونة المكتشفة في الموقع ذات أشكال بسيطة محدودة [٢٤] ، فصناعته لا تتميز بالجودة وأن الأشرطة ذات اللون البرتقالي على رقبة أو بدن الجرار هي الأخرى بسيطة لا تعطي أي إنطباع على أنها مستوردة ، وليس واضحاً ما إذا كانت أفران حرق هذه الفخاريات قد أنشأت في داخل المستوطن أم في منطقة النخيل آنفة الذكر ، نذكر ذلك بسبب مشاهدة الباحث جراراً فخارية تستخدم للطبخ من قبل السكان العرب المحليين بهذه المنطقة من المستوطن والذين يعرفون ب " الشحوح " [٢٥] . وربما البعض من الخزف (الفخار المزجج) المكتشف خلال تنقيبات الدربحانية بسيط هو الآخر في صناعته ، لكنه لا يخلو من التعبير عن الإهتمام بالطابع الجمالي والتزييني إضافة إلى وظيفته الأساسية .

إن من بين الصناعات المحلية الأخرى ، هي المنسوجات والصناعات الجلدية ، فيما يتعلق بصناعة النسيج ، فإن العثور على عظام الأغنام والمعز في مباني منطقة الندود مختلطة مع القواقع والمحار قد تساعدنا في هذا المجال ، فإن تربية هذه الحيوانات وإستخدامها كمادة غذائية من قبل السكان لابد أن تؤدي إلى غزل أصوافها كملابس ومفروشات والتي تشمل كذلك صناعة المرعز من شعر المعز ، ومع أن التنقيبات في المستوطن لم تساعد على إكتشاف عظام الجمال ، فإن وبر هذا الحيوان هو الأكثر نفعاً لمجتمع ذا نسيج قبلي بدوي لا يستغني عن وبر الإبل في عمل خيامه .

إن تركز صناعة المنسوجات لابد أن ينصب على أصواف ومرعز ووبر الحيوانات المحلية المذكورة آنفاً ، وليس واضحاً لنا ما إذا كان الكتان المصبوغ باللون الأسود الذي يرتديه صيادوا اللؤلؤ محلي المنشأ (من مزارع منطقة النخيل مثلا) أم مستورد من خارج البلاد ، يتبع ذلك بعض الأدوات الحديدية التي يستخدمها هؤلاء الغواصون أثناء عملهم ، وهي

" دور سك " مختلفة ، هذا الإختلاف في مصادر العملات يعني إختلافاً في أقيامها السعرية في السوق وفقاً للأوضاع السياسية والإقتصادية في أقاليم أو مدن الضرب ، من ناحية أخرى ، فإن تنوع العملات هنا لابد أن تكون قد صاحبتها " أعمال صيرفة " ولاسيما حين يتعلق الأمر بمبالغ مالية عالية وعمليات تجارية خاصة بصفقات بيع وشراء البضائع .

إن وظيفة مستوطن الدربحانية ، بصفتها سوقاً تجارياً يتعامل مع الخارج ، تتطلب عملاً رقابياً من قبل السلطة ، كما تتطلب نظاماً قضائياً يبت في المشاكل التي قد يتعرض لها التجار والوسطاء المتعاملين مع المدينة ، بعبارة أخرى ، لابد من توفر " نظام مؤسساتي " في المدينة والتي تمثل بمجموعها سوقاً تجارياً يتعامل مع العالم الخارجي . هذا يتطلب بالطبع " تشكيلات عسكرية أو نظاماً للشرطة " للدفاع عن المدينة وحماية مصالحها ومياهها الإقليمية ، سواءً تجاه إغارات القبائل المحلية أو قراصنة البحر من الأوربيين ، ولابد من وجود " نظام بريدي " يفي بمتطلبات المراسلات التجارية وإتصالات المقيمين الأجانب في هذه المدينة مع مواطنهم الأصلية ، يضاف إلى ذلك مراسلات مواطني المدينة مع ذويهم خلال فترات أسفارهم التجارية التي قد تستغرق مدداً طويلة .

٣- المباني الدينية :

إن أول هذه المباني لابد أن يكون " الجامع الكبير " للمدينة ، وإحتمال إنتشار الجوامع الأخرى والمساجد الصغيرة داخل الأحياء السكنية ، هذه المباني تعد من أساسيات المستوطن الإسلامي مهما بلغت مساحته ، صغيرة أو كبيرة كالدربحانية .

٤ - التخطيط العام للمدينة :

إن تكوين المدينة في أجزائها الثلاث قد تتضمن شوارع فاصلة تسمح بمرور السكان والتنقل بين حاراتها (الدربحانية ، الندود ، والمطاف) ، وكثيراً ما يحصل أن تصاحبهم جمالهم ودوابهم إن تطلب الأمر نقل بضائع أو حتى مجرد إستخدامها في تنقلاتهم الشخصية ، أما في داخل الحارات فهنالك بالتأكيد طرقات فرعية ، حتى لو كانت ضيقة ، تطل عليها الدور السكنية والدكاكين والمباني الأخرى (دينية وإدارية وخدمية) . وإذا كانت الطرقات الفرعية ذات تخطيط عشوائي وغير منظم ن كالذي تكشف عنه التنقيبات في الحارات السكنية بالمدن القديمة ومنها الإسلامية ، فإن

إضافة لما ذكرنا ، فإن الأدوات المعدنية المنزلية لابد أخذت مكانها بين الصناعات المحلية ، ولا يبعد أن يكون الإناء البرونزي المزخرف الذي أفرزته أعمال التحري الأثري في منطقة المطاف هو أحد هذه الصناعات المحلية لِما يتسم به من بساطة في الزخرفة (لوح ١٤) [٢٦] .

٦ - **توفر مصادر العيش الكافية :**

تتنوع مصادر العيش هنا بشكل يمكن أن يوفر الكثير من الغذاء للسكان ، وربما يشكل البعض منه فائضاً يكّون خزيناً غذائياً في مواسم الشحة ، وقد يسوّق البعض منه إلى مناطق الإحتياج القريبة ضمن الإقليم ، أي رأس الخيمة ومحيطها.

تشكل المحاصيل الزراعية الموسمية وغرس النخيل في المنطقة التي حملت هذه التسمية (النخيل) ، عند السفوح الجبلية التي تطل على السهل المحاذي للمدينة في الجهة الجنوبية الشرقية ، مصدراً مهماً في تغطية الإحتياجات الغذائية ، وتعتمد المزروعات هنا في سقيها بالدرجة الأساس على الأمطار الموسمية المتساقطة على جبال وسهل منطقة النخيل ، فتلاحظ المزارع المدرجة المحدودة المساحات تنتشر على سفوح الجبال المذكورة ، أما المزروعات عند السهل فتسقى طوال السنة بواسطة مياه الآبار التي تغذيها مياه الأمطار الموسمية هذه مخلفة مياه جوفية قريبة من سطح التربة .

لا تقل عن ذلك أهمية هي المواد الغذائية البحرية ، وأبرزها الأسماك وأحياء مائية أخرى ، وبكميات محدودة ، لابد أن الصيد البري والطيور قد أخذت مكانها ضمن قائمة المواد الغذائية للسكان ، ذلك إضافة إلى الماشية كالماعز والأغنام التي عثر على عظامها مختلطة مع عظام الأسماك في تنقيبات التل رقم (١) بمنطقة الندود [٢٧] . إضافة لذلك ، قد تكون مجاميع الأغنام والماعز ، وربما الأبقار ، هي الأخرى محدودة الأعداد لكن الجمال قد تكون الأكثر توفيراً للحوم ، يلحق بذلك بالطبع المنتجات الحيوانية كالحليب واللبن والسمن لتكون مجتمعة مادة غذائية عالية القيمة للسكان .

ومن مصادر العيش التي كانت ترفد حياة أبناء مجتمع الدربحانية هي مارست البعض منهم حياة الرعي في الصحراء كعادة أبناء القبائل العربية منذ القدم حتى لو توطنوا في أماكن ثابتة ، فهم يخرجون بإبلهم وماشيتهم

معروفة لأصحاب هذه الحرفة من أبناء الخليج العربي ، فهي الأخرى قد تكون محلية الصنع بسبب بساطتها.

وبصدد التحدث عن المنسوجات في المستوطن يجب أن لا نغفل وظيفة هذا الموقع كميناء يستقبل السفن التجارية من أقطار مختلفة ، مع هذه السفن لابد من قدوم المنسوجات الأجنبية ، ومنها الحرير الصيني والأسيوي بشكل مفروشات وأقمشة جيدة متنوعة ومعها توابل الهند التي تصدر إلى أقطار الخليج العربي وكذلك بلاد الرافدين ومناطق البحر الأبيض المتوسط ، فالمنسوجات والتوابل والطيوب القادمة من الهند وبلاد الصين ذات تأريخ طويل بين البلدان التي ذكرناها وبين بلدان الشرق عموماً ، كذلك بين الأخيرة وبين بلدان الغرب ، لاسيما خلال السيطرة الأوربية لمناطق الخليج العربي .

ومن المنطق أن نضع لمهنة " النجارة " في رأس الخيمة المكان المميز بين المهن الأخرى التي تمارس هنا وفي أي ميناء آخر ، على الرغم من أن بقايا السفن مثلاً لم تكن بين المكتشفات الأثرية ، وقد لا يعثر عليها في التنقيبات المستقبلية في الموقع بسبب تأثير الرطوبة ووقوع المستوطن على ساحل البحر ، إلا أنها بالتأكيد كانت الصناعة السائدة التي يحترفها نجارون ماهرون في صناعة السفن وإصلاحها ، وربما تأتي ألواح الخشب مع المواد المستوردة من الخارج ، مع إستخدام المتوفر محلياً من أشجار منطقة النخيل .

المنتجات الجلدية عموماً متيسرة محلياً ، وإن إنتاجها لا يوجب إستيراد جلود الحيوانات لا سيما أن الأغنام والماعز لا تزال متوفرة في مراعي منطقة النخيل . إن ظهور عظام هذه الحيوانات بين المكتشفات الأثرية في المستوطن قد تشير إلى " الدباغة " التي تعد العملية الأولى في الصناعات الجلدية ، فجلود الأغنام حتماً كانت تستخدم في صناعة الأحذية ، إما جلود الماعز ربما وظفت لعمل أوعية (قرب) حفظ الماء .

ومن الحرف الأخرى التي إمتهنها أبناء الدربحانية كغيرهم من أبناء الخليج العربي هي إصطياد الحيوانات البحرية الكبيرة ، كسمك القرش والحيتان وإعداد عظامها للبيع ، أما اللؤلؤ فلابد أنه إحتل مكانة طيبة بين مبيعات السوق في رأس الخيمة ؛ فقد أشرنا في موضع سابق بالبحث أن نقاط التنقيب في الندود قد زودتنا بكم هائل من قشور المحار .

الهوامش :

١- طه ، منير يوسف (تنقيبات البعثة الآثارية العراقية في مستوطن الدربحانية ، إمارة رأس الخيمة – دولة الإمارات العربية المتحدة) سومر ، م ٣١ ، ج ١ – ٢ ،بغداد : دار الحرية للطباعة ، مطبعة الجمهورية ، ١٩٧٥ : ٢٨٤-٢٨٥ ، الخارطة ١ ، لوح ١ ؛ المشهداني ، د. إبراهيم عبد الجبار ، د. محمد سعيد عمر ، د. صبري فارس الهيتي (جغرافية الخليج العربي) جامعة الموصل : دار الكتب للطباعة والنشر ، ١٩٨٠ : ٤٣ .

٢- جميل ، فؤاد (الخليج العربي) سومر ، م ٢٢ ،ج ١ – ٢ ، بغداد : ١٩٦٦ : ٣٩ – ٦٦ .

٣- العزي ، د. خالد (الخليج العربي في ماضيه وحاضره) بغداد : مكتبة الجاحظ ، ١٩٧٢ : ١٤ ؛ الشكري ، صباح جاسم (لقى أثرية من مستوطن الدربحانية) سومر ، م ٣٤ ، ج ١ – ٢ ، الموصل : جامعة الموصل ، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ، ١٩٧٨ : ١٥٢ – ١٧١ ، ١٥٣) .

٤- القيسي ، ربيع (تحريات وتنقيبات أثرية في دولة الإمارات العربية المتحدة – الخليج العربي) سومر ، م ٣١ ، ج ١ – ٢ ، بغداد : دار الحرية للطباعة ، مطبعة الجمهورية ، ١٩٧٥ : ٦١ – ٨٢ ؛ ينظر : طه ، ١٩٧٥ : ٢٨٣ – ٣٠٩ ؛ ينظر كذلك : الشكري ، ١٩٧٨ : ١٥٢ – ١٧١ .

٥- ينظر :

Oates , J." Mesopotamia and its Relation to Gulf Countries " , in Qatar Archaeological Report , Oxford , 1978 : 39 - 52 .

٦ . المصدر السابق ، ص ٣٩ ؛ الراوي ، د . فاروق ناصر (وثائق مسمارية شواهد على إنتصاراتنا في عيلام) ، مجلة بين النهرين ، عدد ٣٤ – ٣٥ ، ١٩٨١ : ١٥٢.

٧ . بيبي ، جيوفري (ترجمة ، أحمد عبيدلي) البحث عن دلمون ، (سلسلة الجزيرة العربية ٢ ، نيقوسيا ، قبرص ، ١٩٨٥ : ٢٩٠- ٢٩٣ .

٨- باقر ، طه ، (مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة) ، ج ١ ، ط ١

إلى الصحراء في مواسم المطر حيث تنمو الحشائش والأعشاب البرية وتتجمع المياه في البرك والآبار ، لاسيما الآبار التي يحفرونها في قيعان الوديان التي تكون المياه فيها قريبة من السطح ، ثم يعودون إلى ديارهم بعد أن تنعم حيواناتهم بكميات كافية من الغذاء وتكاثرها .

إن ما ورد في هذه الفقرة (٦) يؤشر بوضوح توفر البيئة الطبيعية الملائمة للإستيطان بمنطقة رأس الخيمة ، يضاف إلى ذلك المناخ الملائم والمياه الصالحة والكافية للشرب والسقي ، وهي عوامل مهمة تساعد على تركز هذا الإستيطان .

وقبل ختام هذه السطور ، نحاول أن نعيد إلى الأذهان شيئاً من الصورة الحقيقية التي كان عليها مستوطن الدربحانية ، أو بالأحرى مدينة رأس الخيمة إبان الفترات الإسلامية المتأخرة ، والتي كانت في حقيقتها فترة إزدهار حضاري ونشاط إقتصادي تفردت به المدينة آنذاك ، وإذا حاولنا أن نقترب من رأس الخيمة أكثر ، فإن المدينة قد أدت دوراً لا يقل أهمية عما هي عليه مدينة دبي في يومنا هذا . ومع إن تأريخ رأس الخيمة في تفاصيله العمارية والفنية لا يزال ينتظر معاول التنقيب ، فإن نتائج الأعمال الآثارية الأولية التي كان لنا شرف المساهمة به تشير بوضوح إلى أن ما تمتعت به هذه المدينة من موقع مهم على الشاطئ الغربي للخليج العربي ، تدعمها عوامل بيئية ومناخية ملائمة للإستيطان ، قد جعل منها مركزاً لإستقطاب التجار من بلدان مختلفة كما أشرنا في السابق ، وفي هذه الحاضرة العربية تنوعت منتجات لها أهمية حضارية وفنية سواءً محلية أو مستوردة ، وشهدت أسواقها تداول عملات نقدية ضربت في أكثر من مكان ، وهو ما أشارت إليه المكتشفات هنا ، وإذا ما لقبت مدينة دبي ، ذات المركز التجاري المميز " لؤلؤة الخليج " فإن رأس الخيمة قد وشحت بلقب " لبنان الخليج " .

١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦٢ – ١٦٧.

٢٣- أنظر : طه ، ١٩٧٥ : ٢٨٤ ، ٢٨٨ .

٢٤- أنظر : طه ، المصدر السابق

٢٥- أنظر : الشكري ، ١٩٧٨ : ١٥٤ ؛ المشهداني ، ١٩٧٩ : ٤٣ .

٢٦- أنظر : طه ، ١٩٧٥ : ٣٠٩ . ، لوح ١٤ .

٢٧- أنظر : القيسي ، ١٩٧٥ : ٧٧ – ٧٨ ، ٨٢ ؛ طه ، ١٩٧٥ : ٢٨٤ – ٢٨٥ ، ٢٨٨ ؛ الشكري ، ١٩٧٨ : ١٥٤ .

، بغداد : مطبعة الحوادث ، ١٩٧٣ : ٣١ – ٣٢ ؛ بيبي ، ١٩٨٥ : ٢٩٢ .

٩- بيبي ، ١٩٨٥ : ٤١

١٠- بيبي ، ١٩٨٥ : ٢٤١ – ٢٤٤ ؛ وينظر :

Oates , , J. "Babylon" , 1980 : 199 - 200 .

١١- ينظر :

- Gelb , I. J." Makkan and Meluhha in Early Mesopotamian Sources ". in RA , 64 , no. 1. , 1970 ; 1 – 7 .

- Hansman , J. " A periplus of Magan and Meluhha " in Studies , no. 36 , 1973 : 574 – 587 .

- Potts , D. " The Road to Meluhha " , in JNES ,41 , 1982 : 279 – 288 .

١٢- ينظر : Oates , 1978 : 39 – 52 -

١٣ – الشكري ، ١٩٧٨ : ١٥٣ .

١٤- المصدر السابق ؛ أنظر كذلك : عبد العليم ، أنور ، إبن ماجد الملاح ، (أعلام العرب ٦٣) ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٧.

١٥- أنظر : الشكري ، ١٩٧٨ : ١٥٢ – ١٧١ .

١٦- أنظر : طه ، لوح ٢ ، ١٩٧٥ .

١٧ – طه ، ١٩٧٥ : ٢٨٤ – ٢٨٥ ؛ وينظر : الشكري ، ١٩٧٨ : ١٥٢ .

١٨- أنظر : طه ، ١٩٧٥ : ٢٩٧ .

١٩- ينظر :

- Adams , Robert McC. Heartland of Cities , Surveys of Ancient Settlement and Land Use on the Central Floodplain of the Euphrates , Chicago: The University of Chicago Press , 1981 ,P.142

٢٠- الشكري ، ١٩٧٨ : ١٦٦ – لوح ١ ، رقم ١ .

٢١- بيبي ، ١٩٨٥ : ١٦٥- ١٦٦ ؛ طه ، ١٩٧٥: ٣٠١-٣٠٣ .

٢٢- أنظر : طه ، ١٩٧٥ : ٢٨٤ – ٢٩٥ ؛ الشكري ، ١٩٧٨ :

الخارطة رقم (٢)

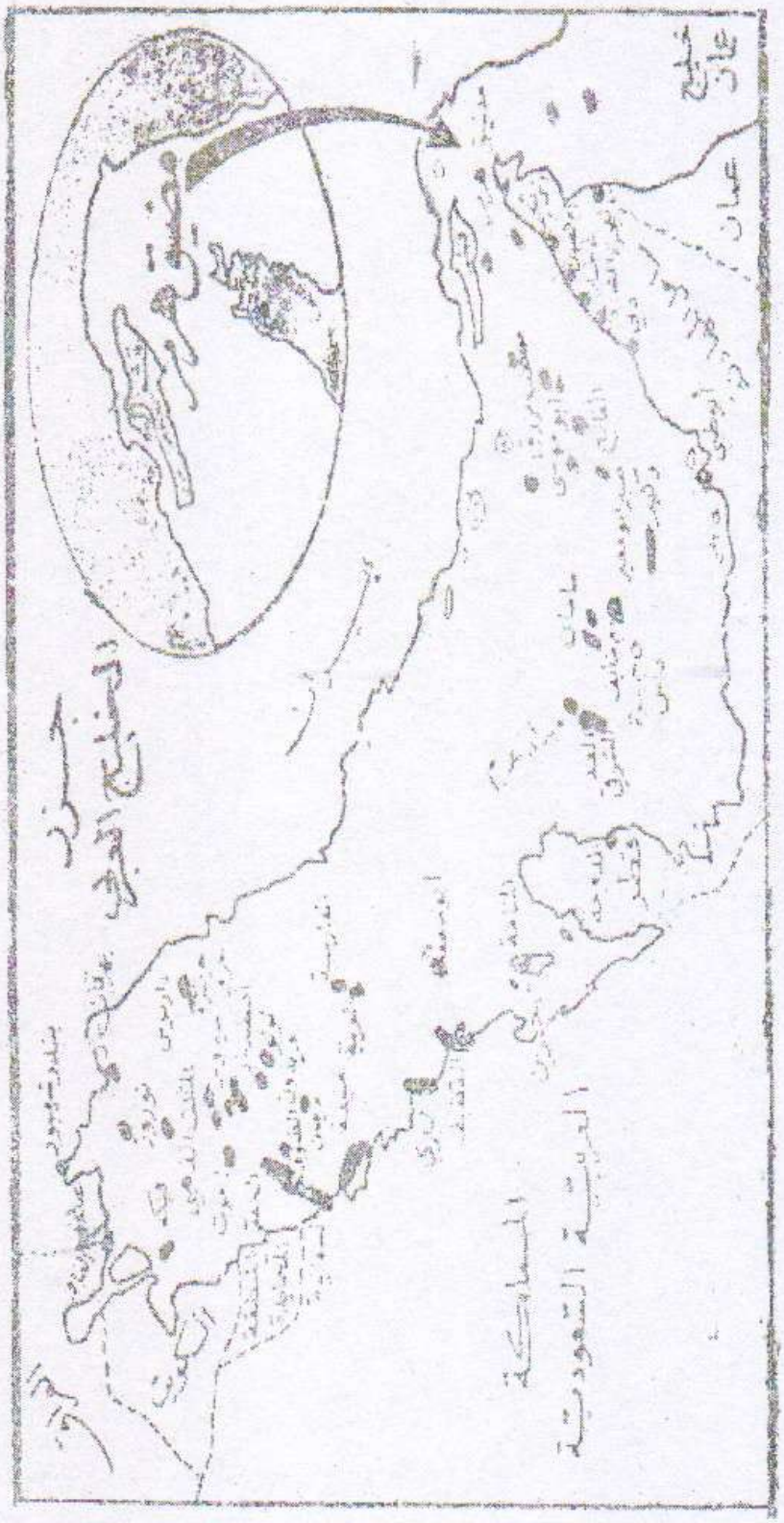

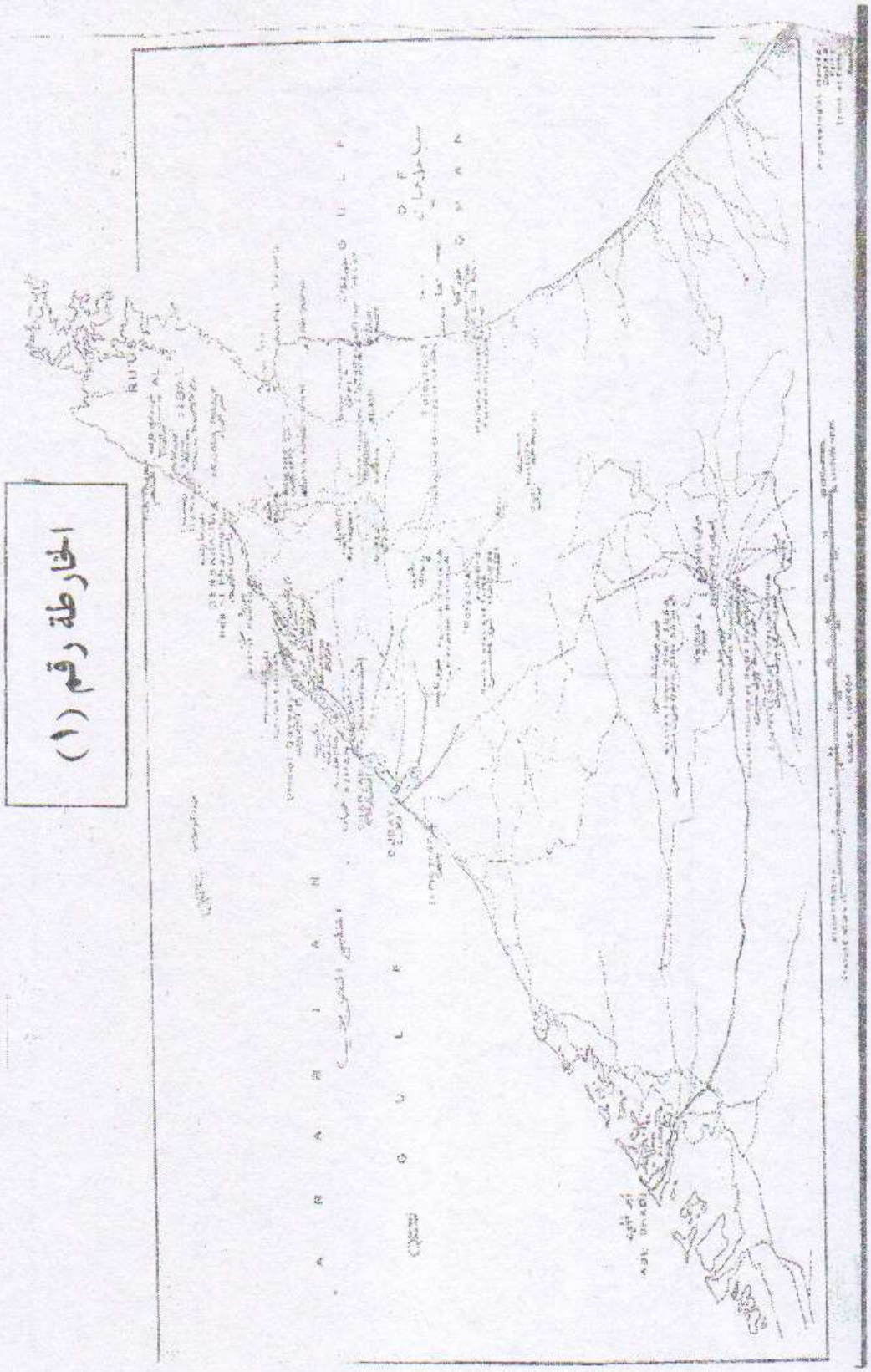

الخارطة رقم (١)

الخارطة رقم (٣)

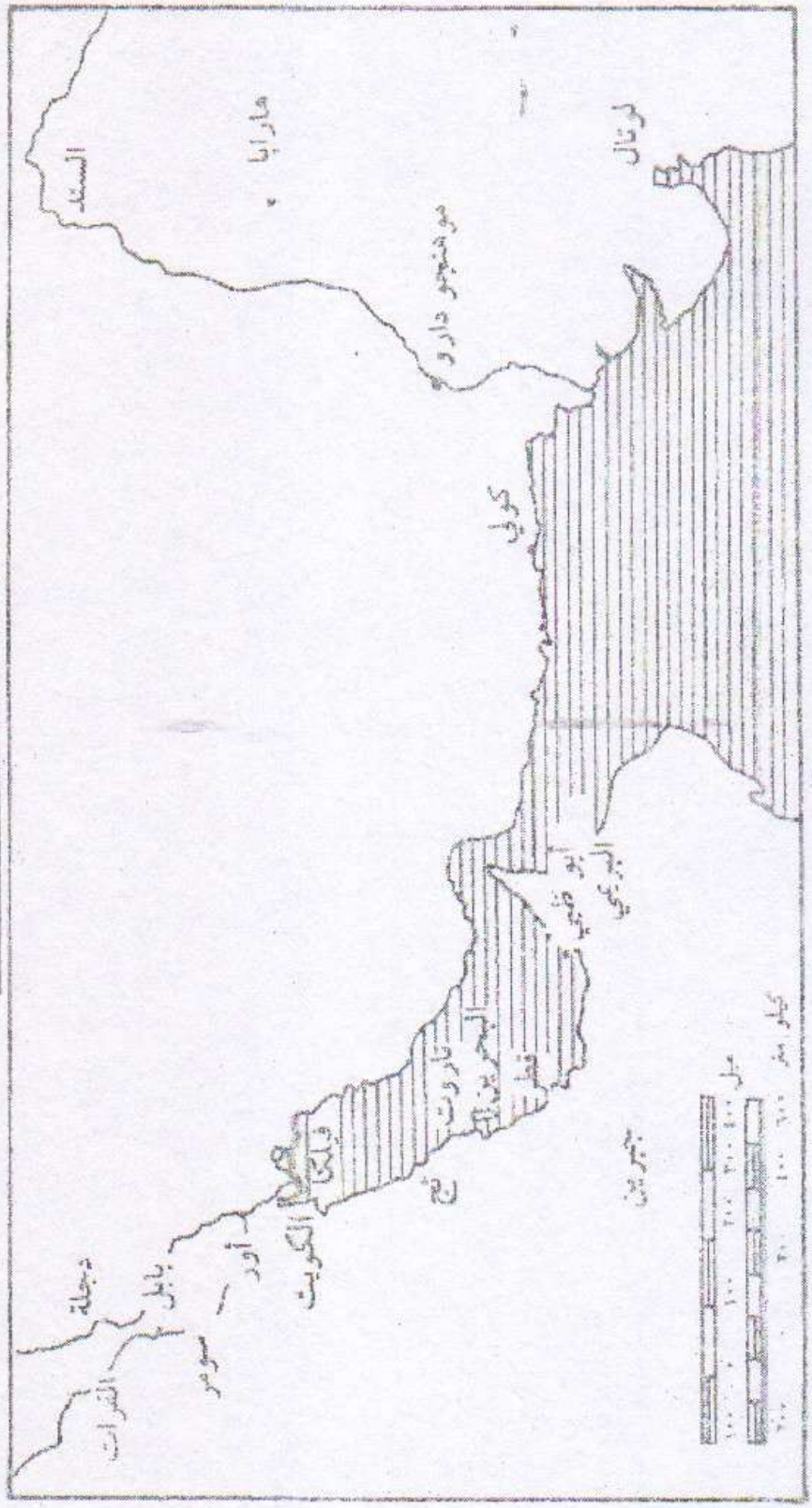

الخارطة رقم (٣)

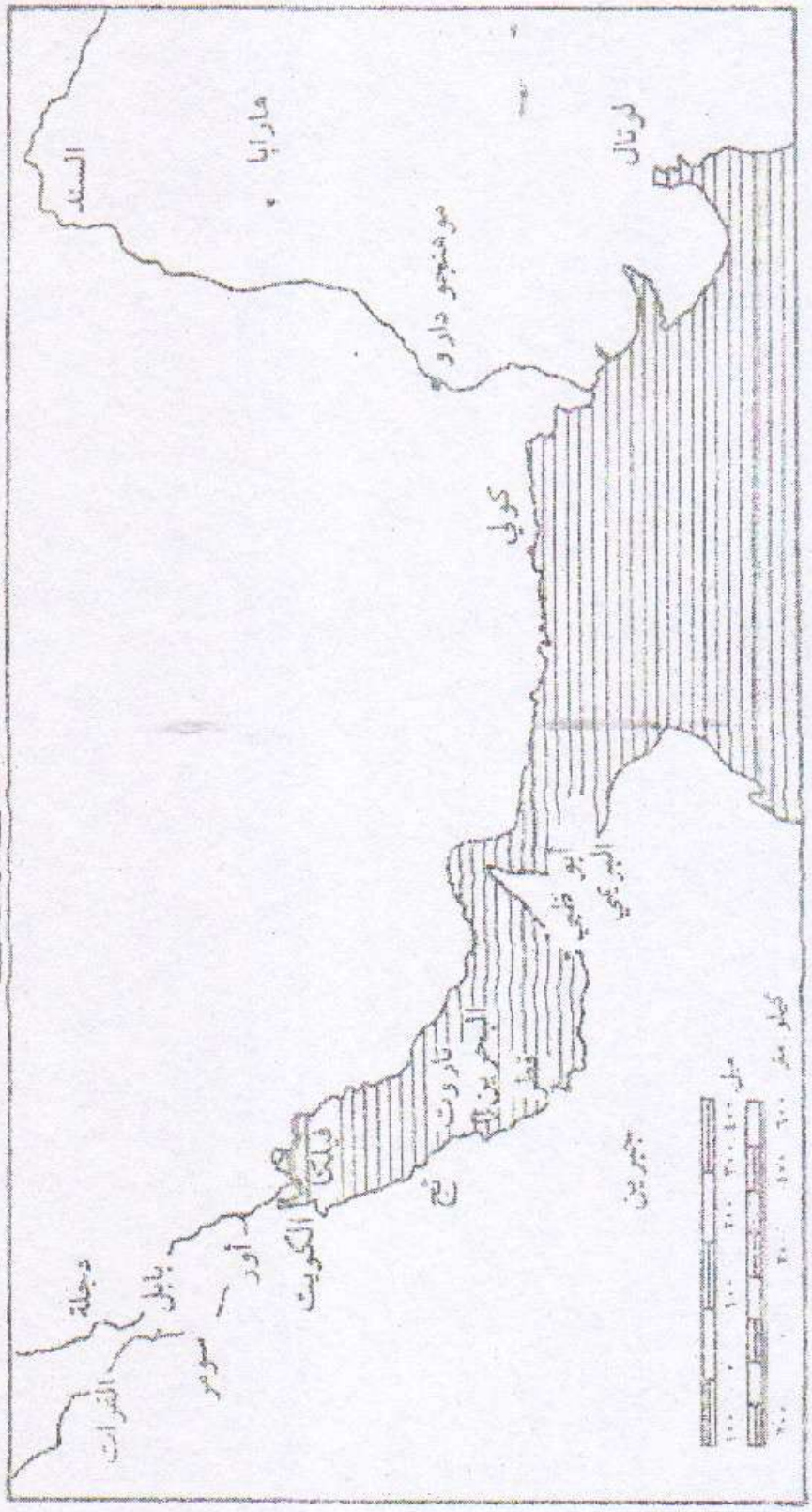

المفردات موحدة وفاعلة في التأثير في قيمهم وممارستهم وعلاقاتهم الاجتماعية اليومية والتفصيلية. وهنا يمكن ان تفعل المسؤولية الاجتماعية فعلها الواضح والمؤثر في تصعيد وتائر العمل الاجتماعي والنهوض بواقع المجتمع ومواجهة الأخطار والتحديات المحيطة به والانطلاق نحو تحقيق الأهداف العليا للمجتمع.

ان تعميق شعور المسؤولية الاجتماعية عند الافراد والجماعات عبر عملية التنشئة الأسرية والمجتمعية انما يضمن المسيرة الصحيحة للمجتمع عن طريق تعميق الوعي الاجتماعي والسياسي للأفراد، هذا الوعي الذي يجعلهم تواقين لخدمة المجتمع والتضحية بالغالي والنفيس من اجل تقدمه ونهوضه وتحقيق أهدافه وإزالة أو تخفيف حدة الأخطار والتحديات المحيطة به. اما عدم الاكتراث بمهمة تعميق المسؤولية الاجتماعية عند الأفراد والجماعات فيكون سبباً من أسباب الانهيار والتداعي والتفكك والفشل في تحقيق أماني الفرد وطموحات المجتمع على حدٍ سواء.

تنطوي هذه الدراسة التحليلية على أربعة مباحث رئيسية هي :

أ. التنشئة الأسرية والمسؤولية الاجتماعية.

ب. مفردات المسؤولية الاجتماعية عند الأسرة العراقية .

ج. المشكلات التي تواجه الأسرة العراقية في تعميق المسؤولية الاجتماعية عند الأبناء.

د. التوصيات والمعالجات لتعميق المسؤولية الاجتماعية عند الأسرة العراقية.

هـ. الخلاصة .

والان علينا دراسة هذه المباحث مفصلاً .